

## مُهْمَةُ المِصْلِحِ الإِجْتِمَاعِيِّ

لحضرة صاحب السعادة العالم الجليل أحمد لطفي السيد باشا

مدير جامعة فؤاد الأول ، والمضروبجمع فؤاد الأول لثة العربية

### ٢ - اللغة :

ذكرت في حديثي الماضي أن مهمة المصلح الاجتماعي تنحصر في مساعدة الظواهر الاجتماعية على تطورها إلى أصلح وجه يقع عليه . واللغة من أهم الظواهر الاجتماعية ، لذلك كانت بعض موضوعنا ، ويسرني أن أتحدث في شأنها .

يتكلم الناس عندنا ، خواصهم وعوامهم على سواء ، بلغة عربية في مادتها ، نايبة عن العربية في صورتها ، أهمل فيها ضبط الحركات في بناء الكلمات ونفيت منها بناتا قواعد الإعراب . كذلك يتفق الخواص والعوام في انقراءة : هم يقرأون الكتب والصحف فلا يراعون ضوابط بناء الكلمات ، يتفون على كل كلمة على حدتها ، فيفنون الإعراب من قراءتهم كما تفوه من أحاديثهم العادية . ثم يختلف هؤلاء وهؤلاء عندما يكتبون . فالعوام ، وهم السواد الأعظم وسوف يظنون كذلك أبداً ، يكتبون في غالب الأمر كما يتكلمون ، وقد يشد بعضهم أحياناً فيكتب لغة ليست بعربية فصيحة ولا رامية صريحة . وأما الخواص فإنهم يكتبون عربية صحيحة ، يكتبها أقلهم بسهولة جريا على عادة ألقوها ، وأكثرهم يجدون مشقة في كتابتها مع أنهم قد تعلموها ولكنهم لم يستعملوها كما يستعمل أهل كل لغة لغتهم في حاجاتهم اليومية .

إذا كانت اللغة ، كما زعم ، من أهم المقومات لشخصية الأمة ، وكانت لغتنا على ما وصفت متعددة الأشكال عند أهلها ، متفاوتة في القوة والضعف في مواطن استعمالها ، شأنها حين دلى أبنائها إلى حد أنه إذا اتفق أن راعى أحدهم قواعدنا في حديثه سخر منه سامعوه - على أن المعروف في البلاد المتعددة أن يسخر من المخطئ في قواعد لغته لامن المصيب - إذا كان الأمر كذلك فماذا تكون حال هذه الشخصية القومية التي تدخل بنصيب كبير في مقوماتها لغة تلك حالها ؟ وهل نرضى أن نرى صورة شخصيتنا في مرآة لغتنا هي هذا النحو من الباهت ومن التخازل إلى حد أنه يصعب الحكم عليها بأنها شخصية محترمة لأمة كأمتنا رفيعة الجلس لها في تاريخ الانسانية مقام محمود ؟

لغتنا، من حيث هي ظاهرة اجتماعية، محل للتطور. فعل أي وضع سيتم هذا التطور؟ الحق أنا إذا تركنا التطور وشأنه من غير أن نسمى إلى تحديد مجراه فلا شك في أنه سيقتصر أمره على اللغة العامية، ويكون حظ اللغة العربية الفصحى حط مثلاتها من اللغات القديمة. لغتنا الفصحى، لغة القرآن، ما الت هي اللغة المعترف بها والتي ما فتئنا منذ نهضتنا الحاضرة نساعد في تطورها وتوسيع ميادين استعمالها. ولكن هل وصلنا من أمرها بتلك الجهود التي شيء كبير؟ هل تطورت فأوتت بما جئنا منها سواء أكانت حاجة نلمية أم أدبية أم فنية، أو هي تدهورت عما كانت في قديم الزمان حتى يضطر أهل البيان عندنا إلى أن يتخذوا مقياسا لفصاحة اللفظ ومقياسا لبلاغة العبارة ما كتبه الأدباء منذ أكثر من ألف عام؟ وهل أضحت تعلمها يسيرا على أبنائنا كما يكون علم كل لغة يسيرا على أبنائها، أو أن أبناءنا يمدون في تعلم لغتنا من المشقة ما يربى على ما يجدونه في تعلم اللغات الأجنبية التي لا تمت إلى لغتنا بصلة ما، مع أنهم يقضون نهارهم وليهم في بيئات لا تتكلم إلا العربية؟ وهل يقرأ أبناءنا، بعد أن تعلموا لغتنا، ما تقع عليه أبصارهم من الكتب قراءة صحيحة سواء أفهموا معانيها أم لم يفهموا، أو نحن، كما قال قاسم، نفهم أولا من أجل أن نقرأ؟ وهل الواقع أن جمهور الشعب ومعه طبقة المتعلمين والمتعلمات يفضلون أن يشهدوا قطعة مسرحية باللغة الفصحى على مشهود قطعة مسرحية باللغة العامية؟ وهل جمهور المستمعين للغناء يجب أن يسمع قطعة من الشعر الجيد أو هو يضجر منها ويؤثر عليها الأعاني العامية؟ وبالجملة هل نحن يجمعوننا نحن لغتنا كما يجب غيرنا لغته ويمتربها كما يتمتربه ووطنه، أم هل نحن جهلناها فغديناها، ومن جهل شيئا عاداه؟

تلقاء هذه المسائل ليس لدينا إلا إحدى اثنتين: إما أن نترك اللغة وشأنها لأحكام التطور الاجتماعي فيحل لغة أخرى بالزمان محل لغة القرآن كما جرى ذلك على سائر اللغات القديمة، وإما أن نرد اللغة العامية إلى اللغة الفصحى فنستعيد بذلك شبابها وتصير أهلا للبقاء. وذلك بأن نهني تطور اللغة مجرى مجرى فيه بحيث لا يضر اللغة في جوهرها، وعنى بذلك المساعدة على شيوعها وجمالها لغة الحديث اليومي كما هي لغة الكتابة ولغة جميع الطبقات، لا لغة كتابة وخطابة نحسب؟ إن لم يفعل ذلك الحريصون على بقاء اللغة العربية وسلامتها قبل فوات الوقت خرج من أيديهم هداية الإمكان، وتطورت اللغة إلى ما لا يعلم مصيره إلا الله. مهمة المصالح الاجتماعي أن يساعد تطور اللغة في ميدانين: ميدان اللغة الفصحى في ذاتها وميدان تسهيل تعليمها.

أما في شأن اللغة الفصحى فإنها على ثروتها الواسعة كل أسعة لم تف بعد بما جئنا، لأنها ليس بها من الأسماء ما نسمى به المسميات العلمية في نهضتنا هذه، وليس فيها من الأسماء ما نسمى به المسميات الجارية الواقعة تحت حواسنا في هذا العصر. فلا بد من وضع

ذلك كله ، ولا بد من اتخاذ الوسيلة لضبط معاني الألفاظ الموجودة الآن في اللغة والتي جمعها جامعو اللغة العربية أو اللهجات العربية للقائل المتعددة على أنها لغة واحدة فكثرت فيها المشترك الذي يدل على صفة معان لا قرابة بينها ، وكثرت فيها ما يسمونه المترادف تدل به صفة الألفاظ على معنى واحد . وكل ذلك إذا جاز في زمن ١٠ فإنه لا يجوز في زماننا هذا ، ولا بد إذن من تقييد كل لفظ بمعنى خاص به . وإننا نكرر أن المشترك والمترادف لا محل لهما الآن عندنا إلا عن قلة وعن طريق الشذوذ .

أما في شأن اللغة العامية فلا بد من إحلال اللغة العربية محلها بالزمان ، وذلك بتسهيل تعلم اللغة الفصحى وإشاعتها إشاعة تفضي بعد قليل أو كثير من الأجيال على اللغة العامية . لقد فكرت في هذا الموضوع منذ اثنين وأربعين عاما فلم أجد لذلك إلا وسيلة واحدة وهي إلقاء الناس إلى أن يقرأوا ما يقرؤون من الصحف قراءة صحيحة في بناء الكلمات وفي إعرابها ، فنشرت رأبي هذا في مجلة الموسوعات سنة ١٨٩٨ ، وهو يتلخص في إدخال الشكل في بنية الكلمة حتى لا يتعاطاه نهر القارئ . فتنى قرأ الناس صحيحا عشرات من السنين اعتادوا نطق اللغة كما كان ينطقها أهلها الأولون ، فيسهل بذلك تعلمها وتم بذلك وحدتها . لم أك مبتدعا رأبي هذا ابتداعا . ولكنه هو الطريقة الطيبية لرسم أصوات الحروف كما ينطق بها . فقد روى سيويه عن الخليل أنه يرى أن الفتحة من الألف والكسرة من الياء ، والضممة من الواو ، وعلى هذا وضع الخليل الشكل على هذه الطريقة فوسم للفتحة ألفا وللکسرة ياء راجعة وللضممة واوا . ولقد اتبعت في رأبي طريقة الخليل ولكن بإدخال هذه الحروف اللينة في بنية الكلمة .

أثار هذا الرأي وقتئذ جدالا بين بعض الكتاب توصلت إلى صرفهم عنه ، لأنى آمنت أن الوقت لم يجز بهد للإصلاح في اللغة بل ولا في غيرها إصلاحا يرضى به الناس . فقبل ذلك بقليل احتج بعض الصحف على الحكومة لأنها شرعت في إنشاء السكك الزراعية ، وبعد ذلك بقليل احتجت تلك الصحف على الحكومة لأنها فكرت في إقامة خزان أسوان .

فلما وابت وزارة المعارف سنة ١٩٢٨ عرضت هذا الرأي على مفتشى اللغة العربية فقالوا بعدم صلاحيته ولم يعرضوا رأيا آخر يجعل من رسم الحروف وسيلة ملزمة للناس أن يقرأوا المكتوب صحيحا فهموا مناه أم لم يفهموه ، كما هو الشأن في جميع لغات العالم .

فلما ولي صديقي الدكتور بهي الدين بركات باشا وزارة المعارف سنة ١٩٣٨ قام بحركة من هذا النوع لم يمهله وقت ولايته تلك الوزارة لاستيعابها واستخراج نتيجتها .  
والآن لا بد للصالح الاجتماعي من عمل شيء في هذا السبيل .

لست متمسكا بالطريقة التي اقترحتها منذ زمان بعيد . ولكنني راض بأية طريقة أخرى تؤدي الى الغاية التي نشدها من توحيد لفظة الكتابة ولفظة الكلام في الجملة ليسهل تعليمها من ناحية وليوجد حدّ مشترك من اللغة بين المتعلمين وبين غير المتعلمين .

كان بعض أصحابنا يرى رأيا آخر يذكرونه في المجالس الخاصة بشيء من التردد ، وعلى استحياء يقيمون الأدلة على صلاحه . ذلك الرأي هو إلغاء الإعراب دفعة واحدة وإلزام السكون أو إخراج الكلمات جميعا على سواء . وهذا الرأي مطعون فيه من وجهين :

أما الأول فإنه لا يخجل من المسألة إلا بعضها دون البعض الآخر . لأن ضبط حركات الحروف ليس ضروريا في الأعراب فحسب ، بل هو أشد ضرورة في بنية الكلمة . وهذا الضبط من جوهر اللغة ، فإذا أهملنا الإعراب وأهملنا الشكل ولم نأت بطريقة تقوم مقامه ظل الناس يلفظون الكلمات على غير وجهها الصحيح كما هم الآن يفعلون .

وأما الوجه الثاني فإن في هذا الرأي إهدارا لصورة اللغة العربية وقضاء على أهم مميزاتها . وذلك ما لا نظن أحدا يرضاه ، خصوصا متى أمكن تسهيل تعليم اللغة وشيوعها من غير الالتجاء إلى العبث بسلامتها ومميزاتها .

هذان الاعتباران أراهما من اجلته بمكان . ولكنني مع ذلك أنوّم أن عقليات الأجيال المستقبلية لا تكاد تتألى بمثل هذه الاعتبارات . فإن اللغة ، في نهاية الأمر ، ليست إلا أداة للتفاهم وواسطة للتعليم . ومن شأن الأداة أن تكون ميسورة الحياة للكافة . فإذا كانت هذه الأداة من المسر بحيث يفنى المرء شبابه في تحصيلها فتي يحصل ما يؤدي اليه ؟

من أجل الاعتبارات التي ذكرتها أرى واجبا على المصلح الاجتماعي أن يجعل بتدبير الوسائل لتسهيل تعليم اللغة الفصحى ، وإلشاعتها في جميع طبقات القارئین ، وبلعلها وافية بحاجات الحياة ، وإلا يكون قد أتى بسلامتها في تطورها إلى أيدي المصادفات ، يجرى عليها التطور كما جرى على مثيلاتها من اللغات القديمة .

أحمد لطفى السيد